هذه شهادة ...

واكيم استور

هذه ليست مقدمة كما أرادها حنا ، اذ لم تعد بيننا مقدمات ، ولن تكون نهايات . ثلاثون سنة ونيف مضت على المقدمة الأولى ، على اللقاء الأول ، ذات صباح ، حين توقف أمامي ، في حي باب التبانة من طرابلس ، وقد وصل للتوّ من اللاذقية ، ماشياً على قدميه ، أشعث الشعر ، مغبرّاً ، متوقّد النظرات كما الآن ...

كنت أعرفه لماماً ، فشدّ على يدي وقال : سنلتقي في المساء . والتقينا في المساء ، وأصبحت أحبه !

. . . . . .

قال لتكن رسالة ، تسجل اسمك إلى جانب اسمي ، كما أنا الى جانبك .

هو فعلاً الى جانبي . دائماً . لقد جمعنا الخيار الواحد منذ ثلاثين سنة ونيف . وقامت « صداقة الرجال » التي يرفع شعارها ، والتي يصبح ، بمقتضاها ، « أحدنا ظهراً للآخر في الملمّات » ...

وأنا فعلاً اكتب له الرسائل .

رسالة يوم أعدموا أحد المناضلين . . ورسالة يوم سقطت سايغون من أيدي الغزاة . ورسالة كلما استبدّت الحاجة الى صديق ، واشتدّ الحنين إلى « رجل » ، وامتلأ الصدر ولم يعد يتّسع . . !

. . . . . .

لكن هذه ليست مقدمة . هذه ليست رسالة . هذه شهادة .

شهادة على ميلاد « بحّار » ، جمعت خيوطه من أطراف البر والبحر ، البحر الذي تسبح فيه كلنا ، ونطمر فيه أسرارنا ، ونودعه أحلامنا ونجاوانا ، فيأتي بحارنا الغواص ، ويصطادها ، وتصبح زاد الناس البسطاء ، من خبز وملح .

. . . . . .

يقبل دون موعد ، كما يقبل دائماً ، مشعشعاً ، فاتحاً ذراعيه ، ليحتضنني مع الدنيا ، وضحكته البريئة الصغيرة تدغدغ أذني : « لقد اشتقت اليك » كأنها تقول ، سعيدة باللقاء .

ويجلس قائلاً بفرح طفولي :

ـ اسمع ! سأكتب قصة بحار عظيم ، يمشي على الشاطىء ، من طرطوس إلى اللاذقية ، ويتذكّر . . !

وعندما يضمّنا مجلس المساء ، وينعقد الحديث ويطيب ، وتتفتح القلوب ، ينبري فجأة :

ـ اسمعوا ماذا حدث لي في مخزن التحف ، عندما كنت في الصين . . .

ويتقدم الليل ولا ينتهي الحديث ، وهو منتشٍ بالكلام ! وأقول في نفسي : بدأت رواية جديدة . حنا يعمل . لقد بدأ « الوحام » عند حنا .

ويميل اليّ فجأة :

ـ حدثني عن الميناء ، ماذا يجري هناك . كيف تسير الأمور . كيف أعمالك ؟ ماذا يصنع الناس ، كيف يفكرون ، ما هي مشاعرهم ؟

ويصغي طويلاً ، ويتجهم وجهه ، ويتألم .

ـ لقد زال فرحي بلقائكم ، الى متى تبقى الأمور هكذا ؟ لو أستطيع أن أتوقف عن الكتابة !

هذه المهنة التي أشقتني . أود أن أموت قبل أن تقهرني الحياة . لكن لا بأس . لا تهتمّ .

هل أنت بحاجة الى شيء ؟ اطلبني في أي وقت ، من أي مكان ، سأطير اليك ، طالما جئت الى هنا لأراك فقط . حافظ على عنفواننا .

وعندما تقترب خيوط الفجر ، أرافقه الى المنزل ، ويلفّنا صمت طويل حزين ...

كلا ! حنا لن يتوقف . إنها آلام المخاض فقط .

ويأتي صباح جديد ، وألقاه أمام طاولته الصغيرة ، مهندماً ، معطراً ، يمسك قلماً كمن يمسك برعم وردة ، وينكبّ على ورقة كأنه يصلي ، أو يداعب طفلاً ، أو يطرز هدية ثمينة .

ـ اسمع ! لقد وصل بحاري الى طرطوس . سيعجبك . كلا ! أبوه سيعجبك أكثر . لن يستسلم ، لا الى الزمن ، ولا الى الحياة ، سيعاركها حتى النهاية . سيتذكّر وينتصر .

ـ اسمع ! لنذهب الى المقهى . سنلتقي بعض الشباب هناك . بينهم بحّارة . سنتحدث . وتتسع الحلقة ، ويطول الحديث .

ـ اسمع ! هيا بنا إلى مقهى البحر العتيق ، مقهى الحاج لطفي ، في نهاية الطريق الصاعدة من كهوف الميناء . سنسلّم على الحاج ، ونسأله عن أحواله ، وعن البحر .

ويأتي المساء :

ـ تعال نمشي في شوارع المدينة القديمة . كان دكاني هنا يا إلهي . كم هي ممتعة هذه النزهة في الشوارع الأليفة .

ونعود الى الشاطىء من جديد . ويضمّنا مجلس مساء جديد .

ـ مررنا اليوم أمام الدكان التي كانت للحلبي . أتذكرون الحلبي الذي قتل السنوسي ؟ أتعرفون كيف افتعل قريبه مشكلة ليدخل السجن وينتقم من الحلبي هناك ؟ وكيف عضّه في أنفه ؟

كنت في السجن آنذاك . اسمعوا !!

ويلفّنا الليل . ويلفّنا سمر ودود أليف .

وأقول في نفسي : الجنين يكبر بسرعة . لن يطول المخاض . رواية جديدة قادمة . شهور فقط . وتأتي منه رسالة ، ثم رسالة . حنا يسأل : أين المقدمة ؟ الرواية جاهزة .

هذه ليست مقدمة . هذه ليست رسالة . هذه شهادة .

هل عرفتم سعيد حزّوم الآن ؟

حنا لم يقع على كنز عندما اختار البحر ميداناً لصراعه . الكنز في داخله . « في مخزون التجارب » . منه ينبع البحر ، ومنه يولد البحارة .

البحر الحياة ، ميداناً اختاره حنا ، لأنه الوجه الأصخب والأغنى ، يخرج اليه الناس ، ومنه يعودون ، انهم يعودون دائماً . بلا حدود ولا قيود . يرتاده البحارة وغير البحارة . هو ميدان لكل الصراعات ، ويربط بين كل الناس ، ويفرق بينهم أيضاً ، وتنتقل عبره الأفكار ، وتلتقي الشعوب .

في الحقيقة ، هذا البحر ليس بحراً . انه كناية ورمز . انه الحياة كلها . والبحارة كل الناس ، يناضلون على البر ويصارعون البحر ، ويعاركون الحياة بكل زخمها وتنوع جوانبها .

ألم نخرج جميعاً من البحر ؟ هل يتحدث حنا عن البحارة فقط ؟ والخياط ؟ والعامل ؟ والمحاسب ؟ وابن العائلة . . . ؟

لكن المعركة بحاجة الى ميدان ، والى مقاتلين .

وهكذا عند حنا ، كان البحر ميداناً وشاهداً ، وكان البحارة أيضاً ! البحارة الذين « يلبسون ثياباً ارجوانية ، وعلى سيكاراتهم تلمع نجوم حمر ، ينهضون من مطاوي الموج ، ويعودون على أشرعة بيضاء ، ويتعلقون بالغيوم ، ومن عيونهم ينتشر ضوء النهار ، وفي أفواههم أغاني القوة ، يصارعون النوء ، ولا يسمحون للعواصف أن تقهرهم ، فرسان معارك مظفرة ، لا يغرقون ، كالشمس لا تغرق في البحر ، وخلف ياقاتهم شارات حمراء . . . » .

هل عرفتم البحـارة الآن ؟

. . . . . .

هل يتحدث حنا عن البحارة فقط ؟ والمرأة ! كيف هي هذه المرأة ؟

أخطأ صديقي صاحب المكتبة اذ قال لي عند صدور « حكاية بحار »: ابدأ بالصفحات ١٩٧ ـ ١٩٩ ! كيف هي هذه المرأة التي يقبل عليها « البطل » بهذا الشغف والجوع ، والتي يستطرد حنا في وصف الكوامن من شبقها وفسقها ، ومن نبلها وعنفوانها ، ومن كرمها ومحبتها ، ومن انتقامها وعفوها ، ملاحقاً إيّاها في أدق التفاصيل ، حتى ينتزع منها كل ما هو خيّر وطيّب ونبيل ؟

ألا ترون انها في كل « نهاية » ، نهاية اللعبة ، لا تترك سرير الصراع ، ولا تغيب عن ذهننا، حتى تذكرنا فوراً، بالوجه الآخر للمسألة : « ماذا يخبىء المستقبل ؟ لماذا تسير الأمور هكذا ، متى ينتقم الصبي الأسود . . ؟

لعل صديقي توقف عند النصف الأول من الصفحة ١٩٩ . .

هذه المرأة التي تفتدي بنفسها كل البحارة ، وكل الصبيان السود ، وتحمل أوزارهم وخطاياهم ، وتقودهم إلى طرح الاسئلة ، وتدعو الى التمرّد ومقاومة الظلم ، تكون لعبتها مشفوعة دائماً بهذه الرموز التي تشير الى « الوجه الآخر للمسألة » . . من يمكن أن تكون ! كيف أخطأنا ورأينا فيها مجرّد امرأة ؟

هل عرفتم هذه المرأة الآن ؟

. . . . . .

هذه ليست مقدمة . هذه ليست رسالة . هذه شهادة .

شهادة على مسيرة لم تكتمل بعد . مسيرة بدأها القدامى بالضرب على « حديد بارد » والدقّ على « الأرض النائمة » .

بدأ الحديد يسخن . والأرض تفيق . تحية أيّها القدامى !

وأخذت أقلب الصفحات من جديد . عجباً ! كيف قال بعض الأصدقاء إن حنا قد ابتعد . لقد فاتنا أن سعيد حزوم لم يتوقف على الشاطىء . كان يسير . وقطع مسافة كبيرة في غفلة منا . وأصبح الحديث أكثر شمولاً وغنى وحبكة . لقد خرج البحار إلى العالم ، وأمسى أكثر نضجاً وفناً .

لقد كبر سعيد حزوم !

وعدت إلى صفحات أكثر قدماً . وسمعت الهتاف نفسه :

« ليس المهم الا نخاف ، المهم أن نقاوم الخوف » .

الحوت يعود إلى المدينة . وسيعود البحار ليدافع عنها . لم يعد يختبىء في الغابة . لقد خرج من « تحت الحجر » ، إلى البحر .

ماذا يشهد على مرحلتنا التاريخية أكثر من هذا ؟

كلا ! حنا لم يبتعد .

أيها البحارة الجدد ! عندما نسلّمكم البحر ، تذكّرونـا !

. . . . . .

هل عرفتم سعيد حزوم ؟ هل عرفتم البحارة ؟

لعلكم عرفتم الآن ، ان سعيد حزوم ، عندما يصل إلى قصر السيدة على الشاطىء ، سأكون هناك ، وسيكون لقاء آخر .

. . . . . .

حنا ، يا حنّانا ، يا كاتب ملاحمنا و « حكواتينا » العزيز ، يا فخر جيلنا وظهيرنا الشامخ ،

يا ابننا الحبيب الذي به سررنـا !

سندق « الأرض النائمة حتى تفيق». و « تشرقَ شمسنا الموعودة » . . ويكبرَ وطني .

وسنهتف للشمس كلما اشرقت ، وانحسر ظلام عن الأرض . . .

وسنكون « العين التي تلاطم المخرز »

« وسنكون دائماً في الموعد »

وها أنذا أشهـد . . !

واكيم أستور

(*) مقدّمة رواية « الدقل » ـ الجزء الثاني من « حكاية بحّار » ـ التي تصدر هذا الشهر عن « دار الآداب » .